الأسس المنهجية في توظيف الدراسات السابقة

د/ ميلود سفاري
أستاذ مكلف بالدروس
معهد علم الإجتماع -جامعة قسطينة-

مقدمة

إن الذي حدا بي إلى الكتابة في موضوع الدراسات السابقة وكيفية توظيفها منهجيا في مختلف البحوث والدراسات مجموعة من الأسباب يمكن تلخيصها فيما يلي:

- الأهمية الكبرى التي تكتسيها الدراسات السابقة في المساعدة على التحكم في موضوع البحث وفق تجربة سابقة، ابتداء من طرح الإشكالية بالشكل الصحيح إلى تلمس الباحث للخطوات المنهجية التي يتقيد بها والأدوات التي يجب أن يستخدمها ووصولا إلى النتائج التي تحصل عليها والصعوبات التي واجهها.

- ما لاحظته من نقص فادح وأخطاء كبيرة ومتكررة في كيفية استعمال الدراسات السابقة وسوء توظيفها ليس على مستوى مذكرات التخرج في مرحلة الليسانس فحسب ولكن حتى على مستوى الماجستير في الدراسات العليا وحتى في بعض رسائل الدكتوراه.

- الإهمال الكبير للدراسات السابقة رغم أهميتها القصوى على أكثر من صعيد حيث يبدأ الباحث أو الطالب صفر اليدين ويتعامل مع الظاهرة موضوع الدراسة وكأنه أول من باشر دراستها بينما الواقع أنه قد يكون آخر من تطرق إليها... ولكنه باغفاله لهذا الجانب يكون قد حرم نفسه من الإستفادة من جهد غيره ممن سبقوه إلى دراسة الموضوع.

1- أهمية الدراسات السابقة:

ويبدو أن ظاهرة الإستخفاف بموضوع الدراسات السابقة وحملها على غير محمل الجد كثيرة الإنتشار بين الباحثين المبتدئين رغم الأهمية التي تكتسيها هذه الدراسات بالنسبة لهذا الصنف من الباحثين بالذات. وفي هذا يقول عبد الله محمود سليمان « من الأخطاء الشائعة في اجراء البحوث اعتبار الدراسات السابقة خانة يمكن أن تملأ في أي وقت من كتابة تقرير البحث.ولا يخفى أن كثيرا من الطلاب يشرعون في قراءة وتلخيص وعرض الدراسات السابقة بعد أن يكونو قد فرغوا من جمع مادة بحوثهم وعالجوها كميا ورصدوا نتائجهم وربما كان يختفي وراء مثل هذا السلوك اعتقادا بأن الدراسات السابقة لا تعد جزءا متكاملا من عملية البحث وإنما هي صفحات تسطر لزيادة حجم البحث» (1).

واعتبارا من هذه الملاحظات كان لا بد من التنبيه إلى أن البحث العلمي في أي مستوى كان (ليسانس، ماجستير، أو دكتوراه) ومهما كانت الغاية منه نظرية أو تطبيقية فإنه يمثل هيكلا متكاملا مترابط الأجزاء يميزه التساند الوظيفي لإجزائه المختلفة. فمن غير المنطقي مثلا أن نبحث في المنهج الملائم الذي يستوجب استخدامه قبل تحديد الظاهرة موضوع الدراسة وكذلك الأمر بالنسبة للعلاقة التي تربط فرضيات البحث بالإشكالية أو أدوات جمع البيانات. وقد لايهم الترتيب عند البعض على اعتبار أن المهم عندهم هو البحث فيها على أن تتم عملية الربط والتنسيق بعد أن تتوفر لديهم مجموع مادة . وهذا كثيرا ما يقع فيه الباحث المبتديء من التجمع غير الهادف والذي كثير ما يأخذ الكثير من الجهد والوقت ليجد الباحث أو الطالب نفسه في النقطة التى انطلق منها أو يظل يراوح مكانه عاجزا عن التقدم في بحثه. فلا غرابة والحال هذه أن يضيع الطالب -طالب الليسانس خاصة الشهرين والثلاثة أشهر دون أن يستقر رأيه حتى مجرد الإستقرار على موضوع للبحث. وليست هذه الظاهرة مقتصرة على طلبة الليسانس بل تواجه الباحثين في كافة المستويات لتحضير الشهادات العلمية، وليس هذا بالعيب وإنما هو جزء من هاجس البحث ذاته شريطة أن لا تذهب هذه المدة سدى وذلك باستغلالها في القراءة المتأنية في أدبيات الموضوع.

وفي الجامعات ذات التقاليد العريقة في البحث العلمي، لا يسمح للطالب أوالباحث أن يضع نقطة سوداء على ورقة بيضاء قبل أن يستوفي الشرط الأساسي لكل بحث علمي وهو القراءة المتأنية المتفحصة حول الموضوع وقد تطول فترة القراءة أو تقصر حسب طبيعة الموضوع ومستوى البحث والدرجة العلمية المحضرة والوقت المخصص لها قانونيا، وقدرة الطالب على الإستيعاب وأخيرا ما يقرره الأستاذ المشرف من خلال متابعته للتقارير التي يقدمها الطالب عن قراءته.

إن الدراسات السابقة تمكن الباحث في نظري من جملة معطيات أهمها:

- تكوين خلفية نظرية عن الموضوع لأنه ليس الوحيد الذي يدرس الموضوع وإنما سبقه إليه آخرون وبذلوا فيه جهدهم وأعطو فيه رأيهم وتحصلوا منه على نتائج، ولكن ليس معنى هذا أن موضوعه غير قابل للبحث... وقد لا يكون آخر من يبحث في الموضوع وأن آراءه ونتائج بحثه سوف تضاف إلى الرصيد المعرفي العام حول الموضوع.

- أنها توفر على الباحث الجهد في اختيار الإطار النظري العام للموضوع

- كما تبصره بالصعوبات التي واجهت من سبقه سواء كانت هذه الصعوبات معرفية أومادية أو في كيفية التعامل مع البحث ميدانيا (إن وجد).

- أنها تبصر الباحث بأخطاء الآخرين.

فالباحث الذي ينطلق من النقطة التي وصل إليها غيره لا شك إنه سوف يكون قادر على الإبداع وعلى إضافة الجديد، أما من سينطلق من الصفر وكأن أحدا لم يسبقه إلى الموضوع الذي يود الخوض فيه قد يأتي جهده مخيبا للآمال بالنظر إلى ما توصل إليه غيره، وكما يقال فإن العلم تراكمي ولو ظل الباحثون ينطلق كل واحد منهم من الصفر دون مراعاة لما تم انجازه لما حدث تطور في المعرفة البشرية ولا عرفت التقدم العلمي والتكنولوجي التي تزخر به اليوم.

إني قد أعذر من أراد أن يخوض في فرع جديد من فروع المعرفة أن يغامر في المجهول وينطلق من نطقة الصفر في شيء لم يسبقه إليه غيره، ومع هذا فإني أعتقد بإنه لم يزد عن كونه خرج عن خط السير العام لذلك العلم وهو نتاج لتراكم سابق حتى وإن خالفه أو تصور أنه يخالفه على مستوى الفكرة أو المنهاج أو في كليهما معا... لكني لا أستطيع أن أعذر شخصا يبحث في موضوع سبقه إليه غيره أن يتجاهل كل ما انجزوه ليبتدىء هو من الصفر لأنه بكل بساطة ليس هناك صفر في المعرفة العلمية. وكما يقال «فإنه لولا وجود نيوتن لما وجد اينشتاين» وبالتالي فإن التطرق إلى الدراسات السابقة بالعرض والتحليل والنقد بقدر ما هو في مصلحة الباحث لمجمل الأسباب التي سبق ذكرها فإنه أيضا

اعتراف في ذات الوقت بجهود الآخرين ممن كانوا سباقين في البحث وعرفانا لهم بما وفروه من آراء ونظريات ومعارف ومعلومات قد لا تكون متيسرة لولا أن وفرتها دراسات هؤلاء الباحثين.

ومن الباحثين من يبرز كسله وتقاعسه عن معالجة الدراسات السابقة بحجة عدم وجودها ولا يكلف نفسه عناء البحث عنها ويكتفي بالتطفل على مجهود الآخرين فيلجأ إلي فصل من كتاب مثلا أشار فيه صاحبه إلى دراسات لها علاقة بالموضوع الذي ألف فيه فيأخذ تلك الإشارات على نقصها ويعتبرها كدراسات سابقة في بحثه، وقد يكون الكتاب نفسه قديما وبالتالي فإن ما يعرض كدراسات سابقة سوف يكون بالضرورة أقدم. ولنتصور بحثا -وقد صادفتني هذه الحادثة في مذكرة منذ أيام- ينجز سنة 1994 يذكر فيه صاحبه في فصل الدراسات السابقة -وفي صفحة واحدة- دراسة أجريت سنة 1908 وأخرى في موضوع مشابه أنجزت سنة 1947 ولا شيء بينهما ولا شيء بعدهما وكأن الموضوع الذي كان موضوع الساعة لم يدرس منذ خمسين سنة. وهنا أود أن أشير إلى ما ذهب إليه أحد الباحثين منذ عشرين سنة -ولا تزال ملاحظاته صادقة إلى اليوم- إلى نوعين من الباحثين حيث يقول «هناك الطلاب الذين لا يقنعون الباحث بما يريدون بحثه وهناك الذين يستحوذون على إهتمام السامع. أما النوع الأول من الطلاب فهم أولئك الذين لم يقرأوا ولم يتعقموا، وإنما في لحظة كسل كتبوا مشروعات بحوثهم يقترحون دراسة العلاقة بين طريقة مسك القلم والتحصيل المدرسي مثلا أو العلاقة بين الإبتكار ولون العينين... أما النوع الثاني من الطلاب فهو ذلك الذي عانى مشكلته وعايشها وظهرت معاناته من خلال قراءاته فأخذ يحدد مشكلته في أسلوب واضح، ثم أخذ يوضح مبررات بحثها من خلال دراسته للبحوث السالفة وما فيها من بحوث في بناء المعرفة ويحاول ببحثه أن يملأها ومن ثم فإن هذا النوع الثاني يتجه إلى الظواهر التي لم تفهم وتحتاج إلى البحث ليزيل ما بها من غموض.» (2)

وفي مقابل هذا النوع من الإشكال الذي يعترض الباحث المبتدىء هناك أيضا إشكال من نوع آخر وهو ميل الباحث أو الطالب إلى كتابة كل ما تقع عليه يده مما له علاقة بموضوع بحثه أو يتصور له إرتباطا بشكل أو بآخر بالموضوع وهو أيضا خطأ منهجي: «فعندما نشرع في كتابة الجزء النظري من البحث يجب أن لا نكتب كل التراث السابق الذي له صلة بالموضوع، بل يجب أن يكون أساس عرض الدراسات السابقة أنها تقدم التبرير المنطقي لمشكلة البحث، كما يجب أن لا نعرض نظرية أو دراسة أو بحث إلا لتوضيح جانب من جوانب المشكلة ولتدعيم فكرة أو لتبرير إستنتاج».(3)

2 - الفرق بين الدراسات السابقة والتراث النظري:

ولا بد أن نشير هنا أن الكثير من الباحثين لا يفرقون بين الدراسات السابقة وما يسمى بالتراث النظري. وإن كنت لا أنكر أن الحدود الفاصلة بينهما ليست واضحة وليست في متناول كافة الباحثين بيد أنه يكون من الصعب التمييز بينهما إذا ما عرف الباحث الغاية من توظيف كل منهما وكيفية توظيفه، فجرد التراث النظري أو ما يسمى بأدبيات الموضوع أو غيرها من التسميات هي عملية شاملة يستعرض فيها الباحث ما كتب عن الموضوع سواء كان هذا التراث في شكل نظريات أو كتب أو مقالات أو بحوث تجريبية مخبرية أو دراسات حقلية ميدانية ... وقد لا تتطلب أكثر من مجرد ذكر للفكرة المحورية لنظرية من النظريات أو النتيجة الرئيسية لبحث من البحوث ... وقد تعرض في سطر كما يمكن أن تعرض في عدة صفحات حسب أهميتها بالنسبة للموضوع وطبيعة الدراسة ومنهجها، كما لا تتطلب أكثر من إعطاء المصادر التي أخذت منها تلك المعلومات أو الأفكار.

أما بالنسبة للدراسات السابقة، فبالإضافة إلى أنها تدخل هي الأخرى ضمن التراث النظري أو أدبيات الموضوع من أوجه كثيرة إلا أن المعالجة المنهجية للدراسات السابقة تختلف كلية عن المعالجة المنهجية للتراث النظري ذلك أن المعالجة المنهجية للدراسات السابقة تتطلب أكثر من مجرد ذكر للمصادر التى أخذت منها المعلومات والبيانات. بمعنى أن كيفية توظيفها تمليها ضرورات منهجية ونظرية مبنية أساسا على العرض والتحليل والنقد بالإضافة إلى تتبع خطوات معينة متكاملة حتى تحقق الغاية المرجوة منها في خدمة البحث.

وسوف أقوم بتلخيص هذه المحاضرة، بعد أن أسوق ملاحظة مختصرة عن توظيف مذكرات الليسانس في الدراسات السابقة من طرف الطلبة. وأول ما يجب الإشارة إليه أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال إعتماد هذه المذكرات كدراسات سابقة بالرغم من أن لها كافة صفات ومواصفات الدراسات السابقة غير أن مستواها الفكري والمنهجي في أغلب الأحيان يجعلنا لا نطمئن إلى النتائج التي تتوصل إليها. فهي لاتخرج عن كونها تجميع لمعلومات دون تحليل أوقدرة حتى على مجرد العرض الصحيح بين الأفكار والتصورات بالإضافة إلى الإستعمال المبتذل لهذه المذكرات من طرف الكثير من الطلاب بحيث أصبحت محفزا على الكسل ودافعا لظهور بعض السلوكات المنافية لروح البحث العلمي في الإتكال على هذه المذكرات ومن ثم نبذ البحث والتقصي.

هناك حالة وحيدة يمكن أن يسمح فيها بالإستخدام المحدود لمذكرات التخرج وهي إذا كان الهدف من استخدامها هو أن يقوم الطالب بنقدها شكلا ومحتوى ومنهجيا ولتوضيح اختلافها عما يطرحه في بحثه وإن يبين تفوق مقترحاته، تصوراته لدراسةأو لموضوع مشابه، ما إذا أراد الإستناد إليها في تبرير بعض تصوراته أو الإعتماد على نتائجها فلا فائدة في ذلك أن لم يكن هناك ضرر.(4)

والأسوأ من هذا كله هو الإعتماد الكلي لبعض الطلبة وفي كثير من الأحيان على هذه المذكرات ونقلها أو نقل أجزاء منها نقلا حرفيا دون الرجوع إلى المصادر التي أخذ منها تلك المذكرات المنجزة وفي الكثير من الأحيان لا يشار إليها اطلاقا... وهذا بالإضافة إلى كونه عمل غير أخلاقي وهو سرقة مفضوحة فهو تقاعس عن البحث في المصادر والمعلومات. وهكذا تتكرر نفس الأخطاء وبالتالي نفس الملاحظات للطلاب تتكرر من سنة إلى أخرى دونما تصحيح لها... ونظرا لعدم التحكم في عملية مراقبة الأخذ من مذكرات التخرج وإستخدامها كمراجع أوكدراسات سابقة، إني أقترح تنظيما مناسبا للعمل بهذه المذكرات يمكن حصره في أن يقوم كل طالب بتقديم ملخص عن مذكرته في بعض صفحات (3-7) يلخص فيها ما جاء في مذكرته، وهو الذي يسمح بالإطلاع عليه من قبل الطلبة للسنوات اللاحقة. ويحتوي هذا الملخص على مايلي:

1) - عنوان المذكرة.

2) - مكان وزمن الدراسة.

3) - مدة الدراسة.

4) - وصف إشكالية البحث.

5) - المنهجية المستخدمة، الفرضيات، وصف موجز للعينة.

6) - عناوين الدراسات السابقة ومصدرها.

7) - وصف موجز لميدان البحث.

8) - قائمة المراجع.

9) - ذكر أهم الصعوبات.

3 - كيفية توظيف الدراسات السابقة:

وألخص هنا كيفية توظيف الدراسات السابقة في شكل خطوات مع العلم أن هذه الخطوات يمكن أن تعتمد على مستوى كافة الشهادات العلمية من الليسانس إلى الدكتوراه، وأني هنا أتكلم عن دراسة وليس عن كتاب أو تأليف نظري. وباختصار يمكن ذكر أن الخطوات الأساسية لتوظيف الدراسات السابقة هي ما يلي (بعد ذكر عنوان البحث):

1- إسم الباحث: أي الجهة التي قامت بالبحث أو أشرفت عليه سواء كان الباحث شخصا أو فريق بحث أو هيئة بحث.

2- زمن البحث : أي التاريخ الذي أجرى فيه البحث ولا نكتفي بالقول بأن فلان أجرى بحثا دون تحديد للتاريخ فلا يعرف القارىء إن كان هذا البحث أجري في الأزمنة الغابرة أم في بداية القرن أم منذ عام فقط.

3- مكان البحث : مع ذكر ما يفيد الموقع الجغرافي فلا شك أن الموقع الجغرافي يفيد اطارا ثقافيا معينا ولا يخفى ما للإطار الثقافي من المجتمع الإنساني قد يكون عين الحرام في ثقافة مجتمع آخر.

4- المدة التي استغرقها البحث أو الدراسة : فالبحث الذي يدوم سنوات ليس كالبحث الذي يتم انجازه في شهور على الأقل من الناحية المنهجية بغض النظر عن نتائج كل منها.

5- طبيعة البحث : هل هو دراسة مخبرية - أم دراسة حقلية، أم ميدانية أم هو عبارة عن مسح اجتماعي، الخ...

6- إشكالية البحث: أي ذكر التساؤلات الكبرى التي طرحها البحث وشكلت هاجسا للباحث دفعته إلى تناول الموضوع بالبحث والدراسة.

7- منهجية البحث : أي المنهجية التي اعتمدها الباحث وكيفية استخدمها ويدخل ضمن هذا الإطار -ذكر- (أ)المنهج - (ب)الفروض النهائية - (ج)الأدوات - (د)مواصفات العينة (ه) المفهوم أو المفاهيم المركزية ذلك أن المنهجية تعتبر قلب البحث.

8- الأهداف الرئيسية التي كان البحث يرمي إليها.

9- الخطوات الرئيسية لسير الدراسة.

10- عرض أهم النتائج التي توصل لها الباحث والتركيز على الإضافة العلمية أو المنهجية للبحث في حق المعرفة. أو النظرية التي خرج بها والتي يمكن أن تعتبر إبداعا في هذا الحقل من البحث.

11- أهم الصعوبات التي واجهت الباحث.

12- نقد موجز لمواطن الضعف ومواطن القوة في الدراسة والقيمة العلمية أو التطبيقية للنتائج التي توصل إليها.

وإذا أردت أن ألخص كل هذه الخطوات في جملة واحدة أقول هي الإشكالية، المنهجية، النتائج أما الباقي فهي حواشي مساعدة بالرغم من أنها ضرورية.

المراجع

(1) عبد الله محمود سليمان : المنهج وكتابة تقرير البحث في العلوم السلوكية، مكتبة الأنجلو -المصرية، 1973، ص20.

(2) المرجع السابق، ص12.

(3) يوسف عنصر: كيفية إعداد مذكرة نهاية الليسانس : مداخلة مقدمة في اليومين الدراسيين حول كيفية اعداد مذكرة الليسانس بمعهد العلوم الإجتماعية في 9و10مارس 1983.

(4) أحمد خالد بخيت : ملاحظات حول بعض صعوبات اعداد مذكرة التخرج، مداخلة مقدمة في اليومين الدراسين نفس المرجع ص18.